آشر براش

أدبُ قبيلةٍ أم أدبُ شعب؟*

مقدمة: حنان حيفير **

في نهاية عام ١٩٣١، ألقى الكاتب والمحرر الأدبي العبري الشهير آشر براش محاضرة في نادي مركز فلسطين التابع لرابطة الكتاب الدولية (PAN) في تل أبيب بعنوان "أدبُ قبيلةٍ أم أدبُ شعب؟". في محاضرته، أثار براش مسألة ما إذا كانت هوية أدب الجالية اليهودية العبري في أرض إسرائيل (الاسم اليهودي لفلسطين) هي أدب قبيلة تعيش في ركن واحد من الشرق الأوسط. أو أنه أدب شعب، أي له السمات المميزة للأدب الوطني.

في محاضرته، أعرب براش عن قلقه من احتمال أن يكون الأدب العبري في "أرض إسرائيل"، الذي من المفترض أن يساهم في تحقيق السيادة الصهيونية، هو أدب قبلي ومحلي وتافه وضيق الأفق. إن تأكيده على أن هذا الأدب، خاصة الذي لا تنضم أجزاؤه إلى "وجه كامل لحياة الشعب"، يعبر عن قلقه من احتمال أن الأدب القبلي المحلي قد يكون عاملًا مخربًا لتكوين "بنية الأدب العبري". يحذر براش من الروايات التافهة للأدب القبلي غير القادرة على إنتاج ما أسماه بنديكت أندرسون مجتمعًا وطنيًا متخيلًا، يتم بناؤه من خلال قصص معقدة ومستمرة تتطلع إلى المستقبل. وعلى النقيض من الأدب القبلي الذي يعرض بناء الأمة الحديثة للخطر، فإن الأدب الوطني الذي يتحدث عنه براش يخلق نموذجًا

* ترجمة علاء حليحل.

** حنان حيفر هو أستاذ لكرسي يعقوب وهيلدا بلاوستين للغة العبرية وآدابها والأدب المقارن في جامعة بيل وأستاذ فخري في الجامعة العبرية.

قال براش، الذي فهم أن المواجهات العنيفة تقوض استقرار المجتمع اليهودي ومناعة سيادته، إنه من أجل أن يساهم الأدب المحلي للمجتمع اليهودي في مناعة السيادة الصهيونية لليشوف، فإنه يحتاج إلى دعم الأدب العبري المكتوب في الشتات.

أدبيًا يجعل من الممكن تخيل السيادة الصهيونية وبالتالي المساهمة فيها.

خلال الفترة التي ألقى فيها براش محاضرته، بدأ مركز الأدب العبري في التبلور في "أرض إسرائيل"، ولعب دورًا مهمًا في بناء مخيال جمعي يهودي-قومي في "أرض إسرائيل". وهكذا، شارك الأدب العبري في "أرض إسرائيل" في تأسيس السيادة اليهودية، وكان الغرض منها تركيز الشعب اليهودي في "أرض إسرائيل". لكن هذه الأدبيات، التي ساهمت في بناء الرواية الصهيونية المهيمنة "من الاستيطان إلى الدولة"، خدمت أيضًا أجندة سياسية كان هدفها تقديم تحويل أراضي فلسطين إلى أرض يهودية لدولة إسرائيل كأمر مسلم به.

يمكن رؤية جدّية السؤال الذي طرحه براش من خلال حقيقة أن محاضرته ألقيت في فترة قريبة من المواجهات العنيفة بين اليهود والعرب التي وقعت في آب ١٩٢٩. مناقشة سؤال براش في مجال العنف في فلسطين/إسرائيل قد يسلط الضوء على حقيقة أن التناقض بين القبيلة والشعب هو تناقض بين نوعين من السيادة. على النقيض من سيادة القبيلة، التي تقوم على حقيقة أن أفرادها يعرفون بعضهم البعض وجهًا لوجه، يشير أندرسون إلى سيادة المجتمع الوطني الوهمي على أنها تستند إلى شراكة متخيلة بين أعضائه، الذين في الواقع لا يعرفون بعضهم البعض. وبالمثل، فإن نوعي الأدب - أدب القبيلة وأدب الشعب - يتخيلان نموذجين مختلفين للسيادة. كل واحد من هذين النوعين من الأدبيات يتخيل ويوجه طريقة مختلفة من عمل القوة العسكرية التي تمارسها السيادة. عادة ما تتخيل أدبيات السيادة القومية الصهيونية قوةً عظيمة لا يعرف فيها الكثيرون بعضهم البعض، والتي من المفترض أن تقوم قوتها العظيمة والرادعة بتأمين سلامتها وحماية أمن سكانها اليهود، الذين أصبحوا مواطنيها مع قيام دولة إسرائيل. من ناحية أخرى، فإن السيادة القبلية، التي تنطوي أيضًا على صراعات عسكرية، يتم تخيلها وتوجيهها، من بين أمور أخرى، من خلال أدب قبيلة صغيرة في البداية وغير مستعدة للحرب بين الجيوش.

وقال براش، الذي فهم أن المواجهات العنيفة تقوض استقرار المجتمع اليهودي ومناعة سيادته، إنه من أجل أن يساهم الأدب المحلي للمجتمع اليهودي في مناعة السيادة الصهيونية لليشوف، فإنه يحتاج إلى دعم الأدب العبري المكتوب في الشتات. وعلى النقيض من نفي الشتات، الذي وسم الصهيونية منذ نشأتها، اقترح براش علاقة أكثر تعقيدًا يكون فيها، في المرحلة الحالية من تحقيق الصهيونية، دعم متبادل بين الأدب العبري المكتوب في الشتات والأدب العبري المكتوب في "أرض إسرائيل". إن تنبؤات براش، القائمة على الاختلاف الإقليمي بين الأدبين، هي في الواقع قاتمة للغاية ، لأنه "في "أرض إسرائيل" ليس لدينا تقليد للأدب الجديد... وفي المنفى ليس لدينا اتصال بالأرض وأشكال الوجود الذاتي" ؛ ولكن وفقًا له، "من خلال توحيد العمل في المنطقتين، أرض إسرائيل والشتات، كان من الممكن الوصول إلى ظروف للخلق الروحي للشعب".

عنوان المحاضرة "أدبُ قبيلةٍ أم أدبُ شعب؟" يثير التساؤل عما إذا كان الصراع الدائر في "أرض إسرائيل" هو بين قبائل أو بين حركات قومية. في الواقع، عندما أثيرت إمكانية نشوب صراع بين القبائل، أثارت المحاضرة احتمال أن تتطور المواجهة العنيفة والسياسية مع الفلسطينيين حول هوية اليهودي الأصلي، على أن هويته الأصلانية تعني أيضًا هويته

القبلية والمتأصلة، وبالتالي فإن عضويته كمواطن تبرر مطلب الصهيونية بالسيطرة اليهودية على أراضي فلسطين. ومع ذلك، من خلال تفضيل هوية الأدب العبري في فلسطين كأدب وطني، يحجب براش حقيقة أنه، في الممارسة العملية، لا يزال أدبًا محليًا لقبيلة تتمحور حول الأصل العبري الذي اخترعته الصهيونية.

بدلًا من ذلك، فإن طموح براش، إذن، إلى أن يكون الأدب العبري في فلسطين أدبًا وطنيًا في "أرض إسرائيل" لا يحجب فحسب، بل يكشف أيضا حقيقة أنه، في الواقع، لا يزال أدبًا قبليًا أصليًا. يبدو أن عنوان محاضرة براش يشير إلى إدراكه أن الإشارة إلى قبلية الأدب العبري المحلي قد تؤدي أيضًا إلى تعريف الصهيونية كمشروع قبلي أصلي معزول عن الشعب اليهودي الذي يعيش في الشتات.

الدليل على أن قضية السكان الأصليين شغلت براش بشكل خاص واضح في حقيقة أن الكتاب المحدد الوحيد الذي أشار إليه في محاضرته كان مخطوطة كتابٍ لفلسطيني أصلي مترجم من العربية إلى العبرية. يمكن النظر إلى انتقاد براش اللاذع للكاتب الفلسطيني الأصلي على أنه محاولة صهيونية لمنع تعريف الصراع بين اليهود والفلسطينيين على أنه صراع متماثل بين قبيلتين، تساهم كل منهما في تبرير السيطرة على الأرض. إن جهود براش للقضاء على التماثل بين القبيلتين واضحة في حقيقة أن مناقشته لمسألة القبلية اليهودية جادة ومحترمة، في حين يقدم قبلية الكاتب الفلسطيني على أنها "طفولية ووحشية". لا شك أن هجوم براش المتعالي على الكاتب الفلسطيني يهينه من أجل التعتيم على قبلية الأدب العبري والصهيونية.

تتفاقم معارضة التماثل الذي قد ينشأ بين تمثيلات قبيلة الصهاينة والفلسطينيين بسبب محاولة الكاتب الفلسطيني الأصلي إدراج الترجمة العبرية لكتابه في الأدب العبري المكتوب في "أرض إسرائيل". يعبر انتقاد براش اللاذع عن قلقه من احتمال أن يكشف نشر الترجمة العبرية لكتاب الفلسطيني حقيقة أن الهوية الحقيقية للأدب العبري كأدب وطني هي، في الواقع، هوية الأدب اليهودي، الذي هو في حدّ ذاته عرقي وقبلي، والذي أدى ولاؤه للمبدأ الصهيوني للفصل بين اليهود والعرب إلى حقيقة أن

آشر براش (١٨٨٩-١٩٥٢) أديب وشاعر إسرائيلي.

عدد الترجمات من العربية إلى العبرية عبر الأجيال كان محدودًا جدًا، كما يبين يهودا شنهاف.

كما أن عاطفية مناقشة براش للكاتب الفلسطيني تشهد على قلقه من احتمال أن تمتد مسألة السكان الأصليين إلى نقاش حول أصلانية الفلسطينيين، مما قد يبرر استمرار الوجود الفلسطيني على "أرض إسرائيل". ويتضح ذلك أيضًا من حقيقة أن براش صاغ عنوان محاضرته كسؤال يشير إلى تردده – وأحيانًا عدم وضوح موقفه – فيم ا يتعلق بهوية السيادة اليهودية في أرض إسرائيل. يتضح هذا التناقض عندما ينطوي نفي الهوية القبلية والمحلية للأدب العبري في أرض إسرائيل على نفيه كأدب قبلي، وبالتالي مشاركة السكان الأصليين أيضا إنكار وجود الاستعمار الاستيطاني اليهودي، وهو إنكار يستند إلى الدور المركزي الذي تمنحه الصهيونية على وجه التحديد للكيان القبلي للمواطن اليهودي، الذي يبرر السيطرة الصهيونية على أرض إسرائيل.

يجادل براش بأنه على عكس الأدب العبري الواقعي المكتوب في "أرض إسرائيل"، فإنه في كتاب المؤلف الفلسطيني "لا يوجد شخص، ولا بيئة، ولا

يبدو أن عنوان محاضرة براش يشير إلى إدراكه أن الإشارة إلى قبلية الأدب العبري المحلي قد تؤدي أيضًا إلى تعريف الصهيونية كمشروع قبلي أصلي معزول عن الشعب اليهودي الذي يعيش في الشتات.

تفاصيل مضيئة. أخبرته أنه في الأدب العبري من المستحيل طباعة مثل هذا الكتاب". وبعبارة أخرى، فإن نقد براش الأدبي اللاذع لكتاب الفلسطيني يطرده رمزيًا من أرضه.

****

آشر براش (نص المحاضرة)

لم أحضر إلى هنا لأقدّم لكم محاضرة، بل جئتُ للحديث عن مسألة خاصّة وغالية علينا جميعًا.

منذ سنوات عديدة وأنا مشغول بالتفكير في مستقبل أدبنا، تمامًا كما يُشغلكم الأمر أنتم أيضًا، زملائي. سأشارككم عبر هذه المحادثة ببعض الأفكار التي تشغلني بخصوص المستقبل المرئيّ لأدبنا، وسيسمح لنا الوقت بالتأكيد بالاستماع إلى أفكاركم حول هذه المسألة. ما دفعني إلى ذلك أيضًا هو مقال د. ش. رڤيدوڤتش الذي نُشر أخيرًا على حلقات في "هَعولام" (العالم). وقد كُتب هذا المقال انطلاقًا من منظور نطاقيّ، من بلاد المنفى، صوب المركز، أي "أرض إسرائيل"، وهو يتطرّق بإطالة وبلغة مُثقَلة قليلًا إلى الرؤيا المُحزنة بأنّ أدبنا العبريّ فقد هيئته وصورَه في شتات المنفى. ويُعبّر المقال عن آلام الروح الكامنة في الإبداع العبريّ التي غادرت أرجاء المنافي، كما أنّه يرى في هذه الرؤيا نذير شؤم لا ينحصر في مستقبل أدبنا فحسب، بل في ما يتعلّق بشعبنا وثقافتنا عمومًا، وهو يدعو إلى تجديد الأدب العبريّ في المنفى.

وأنا رأيتُ أيضًا ما يشبه هذه الرؤيا ولكنّها عكسيّة، رغم أنّني لا أريد أن أسمّي "أرض إسرائيل" بكُنية المركز نسبةً إلى الشعب العبريّ في سائر البلدان، لأنّنا لم نمتلك هذا الحقّ بعد.

لن أتوسّع هنا في الحديث عن مستقبل الثقافة العبريّة برُمّتها، وسأتركّز في المسألة الأدبيّة فقط.

يبدو لي أنّ أدبَنا سيضطرّ في السنوات القريبة للإجابة عن السّؤال التالي: هل هو أدبُ قبيلة صغيرة يتمركز في إحدى نواحي الشرق الأدنى (الشرق الأوسط)، أم أنّه أدبُ شعبٍ يتحلّى بغالبيّة خصائص آداب الشعوب. نحن نشهد في أيّامنا الرّاهنة رؤيا غريبة ومفصليّة في الوقت ذاته. من الجائز أنّ هذه الرؤيا ليست جديدة في تاريخ شعبنا، إذ إنّنا مُعتادون على تقلّبات الدهر، في حين أنّ اللحظات الصعبة كانت أكثر من اللحظات الجيّدة لدرجة أنّ المرء يخال أنّنا وصلنا القاع. بوسعنا أن نحكي عن عدد المرّات التي دُمّر فيها أدبنا، وعن الفترات الكثيرة التي تميّزت بالغياب التامّ للإبداع، فتراتٌ مضغنا فيها بكسل "الغذاء" الذي حضّرته لنا الأجيال السّابقة. هذه قصّة قديمة لكنّ الجيل الذي يُعايشها يشعر بالأزمة والحزن الشّديد.

وحتّى في أيّامنا هذه، وبالذات مع الصحوة القوميّة القادمة من "أرض إسرائيل"، نحن نشهد لدى يهود العالم إفراغًا لقيم الإبداع العبريّة، وترهّلَ الأدب العبريّ في أرجاء العالم. لم يتبقَّ هناك إلّا القليل من الكُتاب، أعمارهم متقدّمة، ومعهم عدد من الشباب لا يُشكّلون سويّة إلّا مجموعة ضئيلة لا يجمعهم معًا إلّا أنّهم يعيشون في بيئة سيئة. إنّهم يشعرون بأنّهم أسرى، ليس فقط بين عبدة الكواكب والنجوم بل وأساسًا بين اليهود، الذين لا يُبدون أيّ حاجة على ما يبدو للكتاب والفكر العبريّيْن. السُّذّج منهم يحلمون بالهجرة إلى الجنة الصغيرة في أرض إسرائيل والنجاة بأرواحهم. وفي المقابل نحن، نتحسّر على ضيق الأفق والضحالة وشحّ القوى الإبداعيّة الفاعلة، وغيرها. وباختصار، لا راحة ورضا لا من

يجادل براش بأنه على عكس الأدب العبري الواقعي المكتوب في «أرض إسرائيل»، فإنه في كتاب المؤلف الفلسطيني «لا يوجد شخص، ولا بيئة، ولا تفاصيل مضيئة. أخبرته أنه في الأدب العبري من المستحيل طباعة مثل هذا الكتاب». وبعبارة أخرى، فإن نقد براش الأدبي اللاذع لكتاب الفلسطيني يطرده رمزيًا من أرضه.

هؤلاء ولا من هؤلاء. لكنّنا نشعر في خضمّ هذه الحالة المأساويّة بتبلور نهج معروف هنا في البلد، والذي يحظى بدعم جماعات معروفة حتّى في الخارج، وإذا حصل وَهيمَن هذا النهج على مناحينا فإنّه سيؤدّي إلى إلحاق الأذى بأدبنا. ما أقصده هنا هو المعتقد قصير النظر الذي يفيد بأنّ الحاضر المُعاش الآخذ بالتشكّل في "أرض إسرائيل"، وهو رؤيا الخلاص في مناطق الأرض التاريخيّة الآن وهنا، يجب أن يكون مبتدأ ونهاية وثيقة شعب إسرائيل المكتوبة. وكلّ ما عدا ذلك هو خارج زمنه وخارج مكانه.

يبدو لي أنّ لا حاجة للاستفاضة في أنّنا لا نملك حتّى الآن أدبًا علمانيًّا بكلّ ما في الكلمة من معنى. لدينا أجزاء من البُنيان- وحتّى هذه ليست كاملة. ثمّة أجزاء مهمّة كان بالإمكان ضمّها إلى بُنيان كبير. لكنّكم ستوافقونني جميعًا أنّنا نرى في أدبنا أحيانًا نافذة في طابق ثالث مُعلّق في الهواء من دون حائط تحته. وهناك من لا يزال يقرع قليلًا، مع أنّه هو الآخر يكلّ أحيانًا، فيما نراه تارةً أخرى مُندفعًا بحمّيّة. أنا أقصد بهذا الشعر الغنائيّ (اللّيريّ). إلّا أنّ وجهه وملامحه وتقاطيعه لا تزال ضبابيّة. القصّة التي تشكّل وجهَ أيّ شعب هي متقطّعة لدينا ومُتشظّية، مع أنّنا نملك أجزاء مهمّة وذات ثِقل في هذه المهنة. لكنّ هذه الأجزاء لا تأتلفُ لدرجة تكوين وجه كامل لحياة شعب، لدرجة أنّنا نكاد نفتقر لوجود أيّ دراما لدينا. زدْ على ذلك أنّ كتابة المقالات ذات المُستوى العالي قد انقطعت بشكل شبه تامّ. وفي مجال العلم ترانا ننسخ أو نكتفي بالتعلّم، وما زال بالوسع أن نرى المحصّلة الكبيرة في المقالات الأخيرة التي كتبها م. ي. بردیتسڤسكي. شظايا وشُروخ.

هل بوسع التجمّع العبريّ الصغير، الآخذ في التشكّل والمُتغيّر والخاضع لهموم التشييد والبناء والمُحاط بالمخاطر الدائمة- هل بوسعه أن يُشيّد عمارة وبُنيان الأدب العبريّ؟

قبل يومَيْن زارني كاتب عربيّ شاب عمره نحو ٢٤ عامًا، ألّف كتابًا ووجد له مترجمًا إلى العبريّة، الذي أرسل لي بدوره نسخة من المخطوطة. بعد فترة ما حضر إليّ برفقة الكاتب المقدسيّ ليسمع النُطق بالحُكم. تأمّلتُ مؤلّف الكتاب: مسيحيّ مشرقيّ، يتحدّث الإنجليزيّة (تلقى تعليمه في المدارس الإنجليزيّة بالقدس)، سريع الحركة ونافد الصّبر، ويؤمن بنفسه إيمانًا مُفرطًا. أراني صحيفة مصريّة طُبعت فيها صورته، صورة "الأديب الشهير" (حيث نشر بضع مقالات وكراستَيْن أو ثلاثًا حول المسائل الراهنة). وقد استقبله في القاهرة وزير التعليم والتقى بالملك، وما شابه. الكتاب عبارة عن رواية قصيرة تتّصف بكونها ترسيميّة وضعيفة وطفوليّة تفيض بتأوّهات الحبّ والتفلسف السّاذج عن الدين والحبّ الأسمى وعن أديان المعتقدات. ليس هناك بشر أو بيئة محيطة أو تفاصيل ذات دلالات. قلتُ له إنّه من غير المُمكن طباعة مثل هذا الكتاب في الأدب العبريّ. القرّاء العبريّون مُعتادون على الأدب الأوروبيّ، وعليه أن يُضمِّن كتابه المُعاشَ العربيَّ: الشخصيّات الشرقيّة والقادة، وكيف يعيشون حيواتهم اليوميّة. ماذا تفعل أمّ البطل وبماذا يعمل أبوه. كيف يتصرّف أفراد البيت في الأيام العاديّة وفي الأعياد وغيرها. وسعيًا إلى تجسيد الأمر قلتُ له: اجعل سير القصّة مثل سجّادة دمشقيّة أو فارسيّة، مصنوعة من الخيوط والألوان الكثيرة، وما شابه. وقد تحمّس كثيرًا لهذه التعليمات، ووافق على "اقتراحي" فورًا وأكّد لي أنّه سيظلّ في تل أبيب وسيعمل على إدخال التعديلات المطلوبة خلال ساعات. فهو كتب القصّة أصلًا خلال أيام معدودة. سذاجة طفوليّة ووحشيّة ريفيّة.

"مع ذلك تأمّلتُ وجهه وعينيْه، وشعرتُ بالغيرة منه، من هذا الكاتب العربيّ المُبتدئ. من الجائز ألّا يُفضي عمله إلى أيّ شيء يُذكر، لكنّ عقله كان طافحًا بالأوهام، وبإيمانه بضرورة وجود "أشخاص كبار" مثله! ومن الجائز حقًّا أن ينشأ بعد ثلاثين أو أربعين سنة كاتب عربي كبير حقيقيّ".

مع ذلك تأمّلتُ وجهه وعينيْه، وشعرتُ بالغيرة منه، من هذا الكاتب العربيّ المُبتدئ. من الجائز ألّا يُفضي عمله إلى أيّ شيء يُذكر، لكنّ عقله كان طافحًا بالأوهام، وبإيمانه بضرورة وجود "أشخاص كبار" مثله! ومن الجائز حقًّا أن ينشأ بعد ثلاثين أو أربعين سنة كاتب عربي كبير حقيقيّ، يُعبّر عن الاحتمالات الكامنة في شعب ولغة تخصّ عشرات الملايين. في سورية والعراق، وفي مصر والجزائر والمغرب وغيرها، ثمّة المزيد كلّ سنة من آلاف المُتعلّمين العرب، وطلاب الثانويّات والجامعات. من بين هؤلاء سينشأ هذا الكاتب، وهم الذين سيقيمون الأدب. ما الذي كان عليه الروس قبل ١٥٠ عامًا؟ لقد شعرت بالغيرة منه لأنّ مستقبلًا فسيحًا وجديدًا وطافحًا بالاحتمالات ينبسط أمامه أو أمام أخيه الأفضل منه. هذا الشعور يُعزّز الأيمان والأمان. ومقابل ذلك، نحن نرى كميّة الخوف والقلق التي ترافق الكاتب العبريّ الذي يعمل على تأليف كتاب طيلة سنة أو أكثر!

لقد حدّثتُكم بكلّ هذا كي أبيّن لكم أنّ بوسعهم أن يظلّوا متخلّفين الآن على عكسنا نحن. وإمّا أن يكون أدبنا أدبَ شعبٍ، أدبَ ثقافةٍ، وإمّا فلا حاجة له قط.

في السّنوات الأخيرة نحن نرى لدى يهود العالم بدايات انتشار للّغة العبريّة. وهذا نابع بالتأكيد من تأثير "أرض إسرائيل". فها نحن نقرأ عن تغلغل اللغة العبريّة إلى المدارس العامّة في أميركا. وكذا الأمر في جامعات أخرى عبر بلدان مُختلفة حيث يُعترف باللغة العبريّة كلغة كلاسيكيّة وحيّة في الوقت ذاته. لقد بدأوا بالتعامل مع لغتنا كلغة شعب. وثمّة آلاف الشباب في بولندا وليتوانيا ورومانيا وأميركا الذين تبنّوْا اللغة بقدر جليّ. لكنّنا نحن، الأدباء العبريّين، نفتقر لقنوات التواصل معهم. الكتب التي نُرسلها إلى هناك لا تصل إليهم، وعلى ما يبدو فإنّ شحن وتصدير القيم الأدبيّة ليسا بالأمر الكافي. فهم لن يُبدوا اهتمامًا بالقيم الأدبيّة التي نُنتجها هنا إلّا عندما يشعرون بأنّهم يُسهمون ولو بشيء ما، بأنّهم شركاء في خلق الشعب. الكُتب ليست صناديق أغنام. ثمّة مُعتقد يقول إنّ الأدب العبريّ معناه أدب البعث، والبعث يعني العيش في "أرض إسرائيل"، والعيش في "أرض إسرائيل" رغمًا عنهم هو أمر مُقيّد، ولهذا فإنّ بوسع هذا المعتقد أن يحول دون تثمين أدبنا ورفع قيمته. صحيح أنّ "أرض إسرائيل" هي قوّتنا الأبديّة وقرّة عيوننا ومنبع حيواتنا، وعلينا التمسّك بها، إلّا أنّه من غير المُمكن التنازل عن الجسد بأكمله من أجل قرّة العين. يبدو لي أنّنا لو استمرْنا في تقليص مداركنا وأرواحنا ضمن الواقع الأرض-إسرائيليّ من دون رؤيا تطمح لشعب كثير العدد والإمكانيّات، فإنّنا سنكون مُعرَّضين للانكماش. وسينتهي بنا الأمر في هذه الرقعة من الأرض كثمرة يابسة وذابلة لا تطرح خيرًا حتّى في الطبخ.

ستقولون إنّ هناك شعوبًا أخرى صغيرة في العالم ولها أدبها الخاصّ أيضًا، وإنّ هذا الأدب يتطوّر تطوّرًا سَويًّا ويتخطّى أحيانًا حدود بلده، مثل الأدب النرويجيّ. لكن يُخيّل إليّ أنّ لا حاجة للاستفاضة في الشرح عن الفوارق القائمة بين "الشعب" العبريّ في أرض إسرائيل، كتجميع للشتات، والذي لا يزيد تعداده عن أفراد مجتمع محليّ يهوديّ كبير في إحدى حواضر العالم، في بلد يحكمه الأغراب، وبين أمّة إسكندنافيّة صغيرة وسويّة وحُرّة، لها أختان لغويّتان أخريان، ولها ظهرُ يابسةٍ مع لغتيْن ألمانيّتيْن مرتبطتيْن بهذه اللغات. ومن المعروف أنّ كلّ الأدباء الإسكندنافيين الكبار يستندون إلى هذه اللغات.

كلُّ أدبٍ لا يُعبّر عن الطاقات الكامنة في الشعب، في الجماهير، لن تخفق فيه روح عظيمة.

لو فصلنا حبلَ سُرّتنا الروحانيّ عن حجمنا القوميّ، ولو تفاخرنا وقلنا إنّنا لسنا الخميرة التي في العجين فحسب، بل نحن الخميرة والعجين معًا، فإنّ أدبنا سيكون كائنًا بالغ الغرابة.

ولو فصلنا حبلَ سُرّتنا الروحانيّ عن حجمنا القوميّ، ولو تفاخرنا وقلنا إنّنا لسنا الخميرة التي في العجين فحسب، بل نحن الخميرة والعجين معًا، فإنّ أدبنا سيكون كائنًا بالغ الغرابة.

لا تذكروا أمثلة من الماضي العتيق عن شعوب صغيرة -وحتى قبائل- كانت قادرة على إنتاج إبداعات كبيرة للإنسانيّة. هذه الرّؤى لن تتكرّر قط. العلاقات بين الشّعوب في أيّامنا، والتي تزداد تركيبًا جيلًا بعد جيل، تُلزم بوجود القوّة والقدرة على التنافس، الأمريْن اللذيْن لم يحلم بهما الأقدمون حتّى.

وحتّى لو وافقنا وقبلنا بأنّنا قبيلة صغيرة، فكيف ستتحقّق هذه الأعجوبة؟ فكلّ فرد وفرد من أفراد قبيلتنا يأتي من مكان آخر في العالم، ويحمل في داخله رسمًا آخر من الثقافة، وله ارتباطات وعلاقات مختلفة مع العالم، وكيف سيُجبر ذاته على التقلّص ضمن تحفظات القبيلة؟ في السّابق سيطر على القبيلة الصغيرة المُبدعة تعصّب كبير وأعمى شبه وحشيّ. فماذا سنفعل نحن الذين تتوزّع روحنا على سبعين ثقافة بهذا التعصّب؟ ستقولون إنّ القبيلة الصغيرة هي في الوقت الحاليّ طلائعيّة، والطلائعيّ سيجد مُتّكًا له في التاريخ القوميّ، في أرض الوطن وفي كَدِّه من أجلها. في ثقافة الشّرق وفي المشهد المُتجدّد هنا على أرض الواقع وفي ذاكرتنا، ومن ثمّ سيرسل هذا الطلائعيّ كلمته للشعب لإحيائه وإخصابه. لا شكّ في أنّ هذه العوامل بالغة الأهميّة في بعث شعبنا وإحيائه، لكن هل هي قادرة على التغلّب على مُتطلّبات الإنسان الجديد، وعلى المفاهيم والمُصطلحات الجديدة التي اكتسبناها في العالم؟

لقد فرض علينا التاريخ أن نكون جيرانًا للعرب في هذا البلد، وهم يختلفون اليوم عن عرب العصور الوسطى في شمال أفريقيا وبابل وإسبانيا. هم في الوقت الحالي شعب مشرقيّ لا يمكنه أن يُثرينا بثقافته. قد يكون بوسعنا أن نأخذ منهم بعض الألوان والأطياف، لكنّني أخشى أنّ هذه الألوان ستكون شبيهة بلون بشرة المريض بالسّلّ.

وفي حال استمرّت قُدمًا عمليّة الانفصال عن يهود المنفى بالمعنى الرّوحانيّ والأدبيّ، فإنّ الضرر سيلحق بكلّ أبناء شعبنا. هنا (في "أرض إسرائيل") وهناك. وأولئك من بيننا الذين يعتقدون أنّنا سنصبح هنا مجموعة مُنتجة روحانيًّا وسنحرز بعض التسهيلات في تصديرها إلى الخارج، هم مخطئون. فقد سبق وجرّب ذلك بعض الفاعلين والعارفين في مجال إصدار الكتب، ولم يحقّقوا أيّ نجاح. الأدب العبريّ في "أرض إسرائيل" ليس إلّا رَجعَ صدًى بعيدًا، يفقد صوته وينتفخ جراء أبخرة المياه حين يعبر المحيط.

وفي حال صدور كتاب جيد في البلد والترويج له بكلّ قدراتنا، وبيعه في أرجاء العالم بنسبة ١٠-١٥ بالمئة من المبيعات في "أرض إسرائيل"، فلا يمكننا عندها الحديث عن وجود علاقة حقيقيّة بين يهود العالم والأدب العبريّ في "أرض إسرائيل". وحتى لو كبرت "القبيلة" ثلاثة أو أربعة أضعاف فإنّ الوضع لن يتغيّر كثيرًا، وأعود وأكرّر: نحن لا نتحدّث هنا عن الأيّام الغابرة، وعن النبوءات الملكيّة. نحن نتحدّث كمَن يعيشون الرّاهن، عن واقع معروف لا حظوظ له. لا يمكننا أن نتغيّر تغيّرًا حاسمًا خلال جيل واحد أو اثنيْن.

من الجائز أنّ هناكَ أشخاصًا سُذّجًا بيننا يحلمون بخلق أدب يُكتب للبشريّة جمعاء، بهدف ترجمته للغات أخرى في العالم. فنحن قد وصلنا إلى فترة تسودها التبادليّة بين القيم الرّوحانيّة. وربما هناك من يؤمن أيضًا بأنّنا سبق وألّفنا كتبًا ولدينا

لكنّنا على ما يبدو لا نملك لا الأراضي السيئة ولا تلك الجيدة. فنحن لا نملك أدبًا كلاسيكيًا (لا يمكن تأليف تتمّات للتوراة والمشناه في الأدب الجديد)، ولا نملك أرضًا للجماهير يُمكننا أن نبدأ باستصلاحها تهيئةً للمحاصيل القادمة.

مبدعون بوسعهم أن يثيروا اهتمام الأغيار وعائلاتهم. أنا لا أؤمن بأنّ العالم الكبير يهتمّ في هذا الزمن بالآداب الصغيرة وبالشعوب الصغيرة. ونحن في كلّ حال لا نرى تحقّقَ ذلك. وإذا كان جيمس جويس الإيرلندي قد أثار اهتمام العالم، فإنّ الأمر يعود إلى كونه أديبًا إنجليزيًّا.

عندما أتذكّر الكتب التي ألّفها كُتاب من شعوب صغيرة لصالح "سائر الأغيار"، ولصالح بعض أخوتنا أبناء إسرائيل، فإنّني أعتقد أنّ عدم تأليف هذه الكتب كان أجدى من تأليفها. وعلى ما أذكر فإنّ كتب شوليم إش تحوي مصطلحات مثل: لدى اليهود يفعلون كذا، يتصرّفون هكذا... إنّه يعرف سلفًا جمهور الهدف لكتاباته. وحُسن وقيمة مثل هذه الكتابات معروف للجميع.

هل سنصير في هذا البلد ما يُشبه القبيلة؟ لا أعرف. لكنّني على يقين من أنّنا لن ننجح في خلق أدب قبيلة بالمعنى الإيجابيّ، وجُلّ ما سنقوى على إنتاجه هو أدب الأطراف وسيكون لونه مشرقيًّا. ولذا، فإنّ أمل أدبنا يكمنان ومستقبله في العمل الخلّاق المشترك للشعب اليهوديّ في "أرض إسرائيل" والمنفى. هنا سيكون دائمًا الجزء الفاعل، محلّ إنتاج اللغة الحيّة النابضة، التي ستتفرّع نحو كلّ مهن الحياة، وسيتمتّع هذا الجزء بظروف الإبداع الأكثر راحة من سائر الشعب كلّه. لكن إذا لم يعمل هذا الجزء على ضمّ النشاط الإبداعيّ الأدبيّ القوميّ-الإنسانيّ لدى جميع اليهود في العالم، فإنّ أدب المجموعة الموجودة هنا سيكون هو الآخر محكومًا بإخفاق لا نجاح من بعده.

كلّ لمّ شمل لأيّ شعب، حتّى لو كان منقطعًا عن البلد-الأمّ، قادر رغم ذلك على الإنتاج بقدر ما، ويُعتبر صداه جزءًا من أدب البلد-الأم. المجموعات الألمانيّة في سويسرا والنمسا وحتّى في تشيكوسلوفاكيا لا تفتقر لمقوّمات أدبيّة تخصّها، لكنّها جزء من المخزون الأدبيّ الألمانيّ. فكيف إذًا يمكنكم أن تتصوّروا أنّنا هنا، الصغيرين والفقراء ومعدومي الموروث، قادرون على الإنتاج وحدنا؟...

قبل فترة قرأتُ محاضرة لأندريه جيد ينتقد فيها مُقابلة مثيرة للاهتمام بين النظريّة الأدبيّة وبين النظريّة الاقتصاديّة. وكما هو معروف ثمّة معتقدان مختلفان في هذا الصّدد: "ريكاردو هورا"، الذي يُفيد بأنّ الأجيال السّابقة حظيت بالمناطق الأفضل وأنسالهم يستغلّونها حتّى اليوم ويجنون المحاصيل الجيّدة. أمّا الأجيال الجديدة فإنّهم يأكلون ما يجدون، ويُقصَوْن إلى المناطق الأقلّ جودةً، بحيث أنّ كدّهم وعملهم الجاد لا يؤتيان إلّا القليل. أمّا الأجيال القادمة فإنّ حصّتها ستكون أسوأ من الذين سبقوهم. هذا هو المعتقد التشاؤميّ. في المقابل ثمّة مُعتقد "هورا كيري"، الذي يُفيد بأنّ الأجيال الأولى لم تستصلح إلّا الأراضي المُريحة للزراعة، وهي الأراضي العجفاء أو متوسّطة الجودة، فيما أُجبرتْ الأجيال الجديدة على احتلال الأماكن الأصعب للاستصلاح وتجفيف المُستنقعات وغرس الأحراج المستديمة، لكنّهم حصلوا على جنى تعبهم مئة ضعف. هذا هو المعتقد التفاؤليّ. وكذا الأمر في الأدب. فهناك من يقول إنّ الشّعوب الكلاسيكيّة استغلّت كلّ المواضيع الجيّدة، في العاطفة والفكر، وفي الشكل والمضمون، ولا يزال ورثتهم يستغلّون بنجاح "هذه الأراضي". وهناك من يقول إنّ مساحات رعي هائلة لا تزال بانتظار الأجيال الجديدة، وسيحظون بنعمة المحاصيل الكثيرة بعد أن يضيئوا فيها شمعةً.

أندريه جيد يؤمن بالمعتقد الثاني، مع أنّه بالإمكان تقبّل المعتقديْن سويّةً.

لكنّنا على ما يبدو لا نملك لا الأراضي السيئة ولا تلك الجيدة. فنحن لا نملك أدبًا كلاسيكيًّا (لا يمكن تأليف تتمّات للتوراة والمشناه في الأدب الجديد)، ولا نملك أرضًا للجماهير يُمكننا أن نبدأ باستصلاحها تهيئةً للمحاصيل القادمة. ليس لدينا في "أرض إسرائيل" أيّ موروث يخصّ الأدب الجديد (القليل الذي لدينا كُتب في المنفى وبروحه)، وليست لدينا في المنفى علاقة تماسّ مع الأرض ومع أشكال وجود مُستقلّة. لكن بوسعنا عبر توحيد العمل في المنطقتيْن، منطقة "أرض إسرائيل" ومنطقة الشتات، أن نتوصّل إلى ظروف خلق روحانيّ خاصّ بشعب. ثمّة معوّقات كثيرة هنا في "أرض إسرائيل" والأكثر منها المعوّقات في المنفى، لكن لو شكّل الإبداع العبريّ في أرض إسرائيل رافعة لحركة عبريّة ولإبداع عبريّ في العالم، عندها سيكون بالإمكان التغلّب على معوّقات عديدة. يجب علينا أن نربط الحصان المُجنَّح إلى محراث كبير يُحيط عبر ثلم واسع بكلّ حقولنا.

علينا ألّا نأمل في قلوبنا أنّ بوسعنا تشييد أدب راقٍ في هذا البلد في الجيل القريب؛ نحن لن نكون جديرين بلقب "شعب مُبدع" إلّا إذا شيّدنا "أرضَ إسرائيل" الروحانيّة في العالم كلّه.

يجب التوقف عن الشعور بالاستخفاف، والأسوأ منه التسليم بكلّ ما ينشأ في أدمغة وقلوب أخوتنا في كلّ البلدان. وعلينا على وجه الخصوص أن نُشرك لدى الجيل الشاب كلّ القوى العبريّة المنتشرة في الجهات الأدبيّة الصادرة في البلد، وأن نساعدهم أيضًا على تشييد مثل هذه المؤسّسات في أماكن وجودهم. وبدلَ أن ننتظر قدومهم إلينا كي يشاهدوا بغيرة "أفعالنا العظيمة"، سيكون من الأجدى لو سافر بعضُنا للعيش معهم ومساعدتهم على إقامة مشاريع للثقافة والأدب العبريّيْن.

علينا أن نُطوّر أدبنا باستمرار، وأن نُعمّقه ونوسّعه، سواءً أكان الجانب العبريّ أم من الجانب الإنسانيّ، وعلينا ألّا نعتاد بأيّ شكل من الأشكال على التفكير الخطير بأنّ أدبنا سيكون أدبَ قبيلة أرض-إسرائيليّة. لو فرض علينا القدر التاريخيّ أن نكون شعبًا تنتشر مجموعاته في مناطق كثيرة ومختلفة، فإنّ علينا أن نُحوّل هذا القدر إلى مصدر مبارك لإنتاجاتنا الروحانيّة. ومن المُمكن أن نُسخّر وضعيّة شعبنا وظروفه الخاصّة (في سياق الرافعة الأرض-إسرائيليّة بالطبع) من أجل خلق أدب ذي طابع خاصّ ومتفرّد.

وحتّى في "أرض إسرائيل" وحدَها بالإمكان ويجب إنشاء أدب متعدّد الأوجه ومتعدّد المضامين. فالجمهور العبريّ الموجود هنا، وأولئك الذين سيأتون للسكن هنا لاحقًا، مُركّب من أفراد آتين من ثقافات وبيئات مختلفة، وهم مُرتبطون مع مُحيطاتهم بآلاف الروابط العائليّة والروابط الطوعيّة.

يجب على الضوء العابر للموشور الأرض-إسرائيليّ من هنا أن يتركّز في كلّ الجهات المُشِعّة لدى شعبنا أينما كانت، ومن هنا سيعود الضوء إلى هناك مُقطّرًا ومُعزّزًا أضعاف الأضعاف.

برأيي، هذه هي طريق الحياة الوحيدة المُتاحة لأدبنا.